قيمة الانســـــان (*)

للأستاذ ميخائيل نعيمه ببسكنتا

يغلى العالم فى هذه الأيام ويفور ، وأخشى أن سيعقب الغليـــــان والفوران انفجار فظيع ودمار هائل · وأنا اذ أقول «العالم» أعنى عالم الانسان لا أكثر ، أما السماء بآزالها وآبادها ، ومعالمها وأبعادهـــا ، وأما الأرض بجمادها ونباتها وما دون الانسان من حيوانها ، فهذه كلها لاغليان فيها ولا فوران ، ولاخوف عليها من الانفجار والدمار · وقد يكون لها أجل محتوم ، الا أنه أجل بعيد ومكتوم · والذى نراه اليوم من مظاهرها وحركاتها ، ونسمعه من أنفاسها وأصواتها هو عين ما رآه وسمعه أجدادنا وأجداد أجدادنا منذ آلاف آلاف السنين ، فلا السماء محمومة ولا الأرض مهمومة · لاتلك تغلى ولا هذه تفور · أما البشرية فمحمومة ومهمومة ، وهى فى غليان وفوران· فعلام هذا الغليان ؟ وفيم هذا الفوران ؟

لذلك أسباب شتى ، منها الظاهر ومنها الخفى ، ومنها القريب ومنهـا البعيد · ولعل أظهرها وأقربها هو أننا فى خلال ربع قرن واحد استطعنا أن نعمل ماعجزت عن عمله جميع القرون الخوالى ، اذ قد خلقنا لنا أجنحة تنهزم من وجهها المسافات ، فالريح أبطأ من أن تجارينا · واتخذنا من الأثير ألسنة لأفكارنا ، فالبرق لايسبق كلمة نرسلها من مشارق الأرض الى مغاربها ، واذا بالأرض تتقلص ، وبأبعادها تتدانى ، وبمجاهلها تغدو معالم ، واذا بالأمم يطل بعضها علىبعض ، ويسفر بعضها لبعض ، ويسمع بعضها صوت بعض ، فلا سقوف ، ولاحجب ، ولاسدود · واذا بالأرض مصول واحد تتصول فيه جميع شعوب الأرض ·

تلك معجزة جاءتنا بها الحربان الأخيرتان ومارافقهما من الثـــورات والزعازع ، فكان منها أن تفسخت أسس الأمم ، وماد بنيان كل منها وتصدع،

(*) من مجلة الكتاب ، القـاهرة ، دار المعـــارف ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص ص ١٧٠٢ ـ ١٧٠٦ ·

فلا انعزال فيما بعد ولا انكماش ولا استقلال ، بل هنالك تسرب وتداخل وتمازج ، وهنالك احتكاك وحذر وارتباك · فما من عقيدة ثابتة ، وما من تقليد راسخ ، وما من رادع الا يناهضه ألف رادع ، أو وازع لا يعاكسه ألف وازع · فكأن الأمم ، وقد كانت من قبل كالطير تبنى كل واحدة وكرها لذاتها ، أصبحت واذا فى وكرها بيض غير بيضها وفراخ غير فراخها، فكان من الطبيعى أن تضطرب وأن تهدد أو أن تستغيث ·

أو كأن الأمم قطعان من البقر ، ولكل قطيع رعاته ومراعية وموارده وزرائبه ، وأفراد القطيع قد ألفوا رعاته وبعضهم بعضا ، مثلما ألفوا عداواتهم وصداقاتهم · ثم جاء من خلط كل هذه القطعان من غير سابق انذار ، فاختلطت عليها رعاتها ومراعيها ، ومواردها وزرائبها ، مثلما اختلطت عليها عداواتها وصداقاتها ، فعلا الخوار ، واحتدم النطاح ، واشتبكت القرون والقوائم ، فكان غليان وكان فوران ·

ذاك فى نظرى هو السبب الأظهر والأقرب لما تشهدون فى العالم من حمى وهذيان وغليان وفوران · أما السبب الخفى والبعيد ، وأما السبب الأهم، فهو أن الناس الذين أقاموا لكل شىء قيمة ووزنا ما أقاموا بعد للانسان قيمة ووزنا يلقيان بمجده وعظمته وجبروته ·

كل ما فى الطبيعة ثمين وجميل وشريف ، ولكن أثمنه وأجمله وأشرفه على الاطلاق هو الانسان ، فهو الكائن الذى لاحدود لكيانه ، هو الفكر الذى لاينثنى يفتش عن ذاته ، والخيال الذى لايمل ارتياد المستتر والمجهول ، والمغنطيس الذى يتناول الالهام من كل مايتصل به من الكائنات . والحزان الذى لاينضب من الشوق الى الكمال المطلق ، هو غاية الطبيعة من وجودها · أما غايته من وجوده فمعرفته لنفسه ، ومعرفته لنفسه تعنى معرفته لله . ومعرفته لله تعنى معرفته لكل شىء ، ومعرفته لكل شىء تعنى القدرة على كل شىء والانعتاق من كل قيد وحد · ومن كان ذلك شأنه ومقامه فى الكون فبماذا تزنه وكيف تحدد قيمته ؟ انه فى اعتقادى فوق كل الموازين والأثمان

بيد أن الناس يعتقدون غير ما أعتقد ، والا لما جعلوا لكل انسان

قيمة ووزنا ، ولما اختلفت موازينهم باختلاف الناس ومايحترفون ويمتهنون، أو يملكون وينفقون ، أو يعرفون ويجهلون ، ولما اختلفت باختلاف الأحساب والانسان ، والرتب والمقامات والحسن والبشاعة ، والجاه والوضاعة ،فكان الواحد بمقام الألف أحيانا ، وأحيانا كان المليون بمقام الصفر عن يسار الواحد · ثم صار الانسان سلعة بخسة تضحى فى سبيل سلعة أثمن ·

لقد تواضع الناس على أثمان للأشياء التى يحتاجون اليها فى حياتهم، وهذه الأثمان ترتفع وتنخفض بالنسبة لكثرة الشىء وقلته والحاجة اليه ، ويندر أن تقع على شىء لاقيمة له البتة فى نظر الناس · أما العامل الذى لايحتاج الى عمله معمل من المعامل التى تنتج الأشياء فقيمته لاشىء ! لست أنكر أن للمعادن والحجارة الكريمة قيمة ، ولكنى أنكر على الناس أن يجعلوا قيمة كل مافى الأرض من ذهب وفضة وياقوت وألماس فوق قيمة انسان واحد وان يكن ذلك الانسان شيخا على حافة القبر ، أو معتوها فى بيت المجانين ، أو مقعدا لايفارق الفراش ·

ولا أنكر أن للنفط قيمة كبيرة فى تسيير عجلات المدنية المتعددة العجلات، ولكننى أنكر على النفط قيمة جديرة بأن تهدر فى سبيلها الدماء البشرية الزكية ، فتزهق الأرواح ، وتتفتت الأكباد ، وتمزق الأجساد ، وتغدو المدن والقرى العامرة خرابا ، والحقول والبساتين الغن يبابا ·

ولا أنا أنكر على الناس قيمة معنوية تواضعوا عليها كالكرامة الشخصية، والمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية على اختلاف أنواعها وألوانها · ثم لا أستغرب أن يموت انسان فى سبيل كرامته ومعتقداته مثلما مات سقراط بالسم ، وبرونو بالنار ، والحلاج بحد السيف ، ومثلما استشهد الكثير من رواد الحرية الفكرية فى سبيل عقيدة أو رسالة · ولكننى أنكر على أى الناس أن يميت أى انسان فى سبيل كرامته ومعتقداته ·

انى أنكر على الناس يجعلوا العمل أثمن من العامل . والحاجة أغلى من المحتاج اليها ، والعقيدة أفضل من معتقدها وأنكر على المدنية أن تسوق الملايين من أبنائها الى حتوفهم على رغم أنوفهم وذلك تحت ستار الدفاع عن حياضها المسمومة وبنيانها المتصدع · ومتى أصبح المورد أثمن من صاحبه

أو وارده ، والبنيان أهم من بانيه أو ساكنه فألف سلام على الورد ووارديه وعلى البنيان وساكنيه ٠

سر كنين وكنز دفين هو الانسان ، واناء قدسى لحقيقة أزلية ـ أبدية هى الله ٠ ولافرق مابين رضيع ويافع ، وبين شاب وأشيب ، أو بين ذكر وأنثى ٠ ونحن لانملك من معرفة الغيب مايخولنا أن نحدد قيمة أى انسان ثم أن نجعل تفاوتا فاضحا بين قيمه انسان وانسان ٠

ليت شعرى هل درت بنت فرعون يوم التقطت الطفل موسى أن لقيطها سيقهر والدها يوما من الأيام ، وسيقهر الزمان من أعالى طور سينا ؟ ولو هى شاءت أن تبيع ذلك اللقيط ترى بكم فلس كانت تبيعه ؟

ذلك مثال واحد من أمثلة بغير عد يحفل بها تاريخ البشرية ، وكلهـــا يشهد على أن قيمة الانسان فوق مايستطيع الناس تحديده ٠ فما أكثـــر الأنبياء والعباقرة والعظماء الذين ما لمعوا فى حداثتهم ولا كان آباؤهم وأمهاتهم على شىء من النبوة والعبقرية والعظمة ٠ ولو كلف معاصروهم أن يقيموا لهم أثمانا لما ميزوهم بشىء عن سائر الأحداث وعن سائر الآباء والأمهـات ، بل كان من الأرجح أن يجعلوهم فى أسفل السلم البشرى من حيث القيمة والأهمية ٠

ان مدرسة تحشو دماغ التلميذ بشتى المعلومات من صالحة وطالحة ولاتعلمه قيمته كانسان لمدرسة لافرق بينها وبين السجن ، وأن طالبا يتخرج فى أعلى المدارس وبأضخم الشهادات ولايعرف قيمة نفسه وقيمة الناس لطالب دفن أجمل شطر من حياته فى التراب ٠ فالشهادات تبلى ، والمعارف تتغربل ، والأحوال تحول ، أما الانسان فأقوى من كل حال ٠ والمدرسة المثلى هى التى تهتم بالتلميذ انسانا عزيزا قبل أن تهتم به مهندسا أو طبيبا أو محاميا بارعا ٠

وأن معبدا يخرج منه العابد ذليل النفس ، صغير القلب ، كسير الجفن لمعبد لايعرف الله ، فالله ماخلق الانسان ليذله ويمتهنه ويشقيه ، بل ليرفعه اليه ويكرمه ويسعده ، ولابراد من الطين ليبقيه طينا ، بل نفخ فيه من روحه

ليجعله روحا كروحه ٠ فالمعبد الأمثل هو الذى اذا ما دخله العابد ذليلا وصغيرا وكسيرا خرج منه أبيا وكبيرا ومجنحا ٠

وان معملا يقيس العامل بما يدره على صاحب العمل من الربح لاغير لمعمل ربحه خسارة ٠ فالعامل انسان قبل أن يكون عاملا ٠ وأن يربح الانسان انسانا لأثمن من كل مافى الأرض من جواهر وأموال ٠ فالمعمل الأمثل هو الذى يعمل الناس للناس ، كل على قدر معرفته وطاقته ، شاعرين بكرامة العمل وعزة النفس وغير مدفوعين الى العمل بمذلة الحاجة الخناقة ٠

لعل أفظع مايتحمله الانسان من الانسان هو الذل ٠ فالذل أبشع وجها من الكبرياء ، وأمر مذاقا من الفقر ، وأثقل وطأة من المرض ، وأقسى نابا من الموت ٠

ولعل أفظع الناس فى عقيدتى هم الذين يعتزون بمذلة الغير ، فلا يسرهم شىء مثلما يسرهم أن يعفر الناس لديهم جباههم ، وأن يزحفوا اليهم على الأكف والركب ، وأن يحرقوا لهم البخور صباح مساء ٠

ولعل أنبل الناس فى عقيدتى هم الذين لايذلون انسانا ولا يذلون الانسان ٠ لأنهم يعلمون أن رفعة تنهض على أكتاف الذل لمذلة أحط من الذل، وأن صورة الله فيهم هى صورة الله فى كل انسان ٠

لقد تفشى الذل فى الأرض فما استقل به قطر دون قطر ، ولاشرق دون غرب ، ومع الذل تفشى المن والرياء والغش والحذر والبغض والصلف والادعاء والغطرسة ٠ فالصدق يكاد يكون عنقاء مغرب ٠ ومثله الأمانة والثقة والمحبة والرفق واللطف والعدل والدعة ٠ والذل وتوأمه الكبرياء لايكونان الا فى عالم تمتهن فيه قيمة الانسان ٠ وعالم يمتهن قيمة الانسان لعالم مقضى عليه بالغليان والفوران ، ومن ثم بالانفجار ٠

ذاك هو العالم الذى نحن منه وفيه ٠ فهو عالم تسيطر عليه ذهنية الحرب ٠ وذهنية الحرب ذهنية بربرية تسترخص الانسان فى سبيل الكسب والسلطان ٠ ويااليت كسبها كان يوما من الأيام غير الدمار ٠ ويااليت سلطانها كان أكثر من عبودية للنار والدينار ٠٠

ذاك هو العالم الذى ورثناه عن سالف الأجيال · فهل نرضى بـــأن نورثه على علاته لمقبل الأجيال ؟

انى لأومل من الجيل الطالع والأجيال التى تليه أن يجيبوا بحزم قاطع وايمان ثابت : «كلا !» وأن ينصرفوا قبل كل شىء وبعد كل شىء الى تعزيز الانسان فى أنفسهم · فمن عرف قيمته كانسان عرف قيمة الناس أجمعين· فما خفض الجناح لمغرور بمال أو بسلطان ، ولاصعر الخد على منبوذ أو مهان · واذ ذاك فلعل الأجيال الآتية تعرف عالما يسوده اللطف والصـــدق والتعاون · وتتذوق فى اليقظة ما لانتذوقه نحن الا فى المنام من حلاوة العدل والاخاء وحسن النظام ·